م.د. علي محمد نور مجيد عباس
جامعة بابل / كلية التربية الأساسية
alimohammednoor99@gmail.com

المعنى بين التشفير والاستدلال
(مراجعة ونقد من منظور نظرية الصلة)

الملخص

رفضــت بعض نظريات تحليل الخطاب الدلالات الناتجة من فك شــفرة النصــوص بوصفها دلالات نهائية، ونادت بضرورة اللجوء إلى الدلالة الاستدلالية الإدراكية ذات الصلة بالموضـوع؛ لأنّها تتضـمن اسـتنتاج نوايا المتحدث وردم الفجوة بين ما يُقال وما يُقصـد؛ لأن الصـــلة لا تختص بالأقوال والظواهر القابلة للملاحظة فقط، بل تختص بالأفكار والذكريات والاستنتاجات أيضا، فالمشكلة الجوهرية هي أن المعنى اللغوي المستخلص عبر فك التشفير لا يُحدد بشـكل كافٍ معنى المتحدث. فقد تكون هناك غموضـات والتباسـات مرجعية يجب حلّها، وحاجة إلى توضيح الحذف الكائن في الكلام ، زيادة على أشكال أخرى ينبغي التعامل معها عقليا؛ لأنّها لا تحدد المحتوى الصـريح، فالبحث عن الصـلة هو سـمة أسـاسـية من سـمات الإدراك البشـري، الذي يمكن للمبلغين اسـتغلاله، وفي هذا البحث، سـنقدم المبدأ المعرفي للصلة، الذي يشكل الأساس المستند إلى نظرية الصلة.

الكلمات المفتاحية: تشفير ، استدراك، تواصل، ملاءمة، صلة .

مفهوم التشفير والاستدلال في التواصل

يمكن تحقيق التواصـل بطريقتين مختلفتين: عبر ترميز وفك ترميز الرسـائل، أو عبر تقديم دليل لاسـتدلال مقصـود عن نية المرسِـل، وهنالك من يذهب إلى أنّ التواصـل اللفظي يسـتغل كلا النوعين من العمليات، فيقف موقفا محايدا من نموذجَي الشـفرة والاسـتدلال، وينادي بإمكانية الجمع بين الشـكلين في التواصـل؛ لأن اسـتعمال إشـارات مشـفرة لا تكفي لتشفير مقاصد المتكلم، ومن ثمَّ فعملية التشفير وفك التشفير تمثل عملية إسناد ومتابعة ومن ثمَّ فلا تكفي عملية التواصل باستعمال شفرة ما بتواصل معيّن، بل يجب إثبات أن ما يحصل

توصيله يُشفر ويُفك تشفيره فعلا، إذًا، الشفرة أداة تساعد المستمع في الاستدلال على ما يعنيه المتكلم[1].

وضمن سياق الحديث نرى أن لدمج نظريات التشفير في التواصل بالنظريات الاستدلالية آثارا مهمة في دراسة المعنى اللغوي[2]، فنموذج الشفرة يفترض أن الرسائل تُشفَّر وتُفكَّك ببساطة، أما نموذج الاستدلال فيفترض أن لعملية التفكيك (أو فك الشفرة) أثرا ثانويا مقارنة بالنشاط الاستدلالي للمُتلقي، ووفاقًا لهذا النهج، فإن فك شفرة العبارات لا يحدَّد معناها بشكل كامل، بل يُعد دليلًا على المعنى الذي يقصده المتحدث، فالتواصل اللفظي يتضمن بالفعل استخدام الشفرة (أي قواعد اللغة)، لكن للاستدلال أثرا أساسيًّا في تحويل المدخلات المشفرة والجزئية إلى تفسيرات كاملة ذات مضمون دلالي[3]، ففي نموذج الشفرة يعمل المرسِل بتشفير رسالته المقصودة في إشارة يفك تشفيرها المتلقي باستخدام نسخة متطابقة من الشفرة، ووفاقًا للنموذج الاستدلالي، يقدم المرسِل دليلاً على نيته في نقل معنى معيّن ويستنتج ذلك المتلقي على أساس الأدلة المقدمة[4]، فالعملية الاستدلالية تبحث في المعلومات المنقولة ذات الصلة من أجل ضمان الملاءمة والبرهنة بأن كل عبارة لها تفسير واحد على الأكثر يتماشى مع مبدأ الملاءمة يكفي لتفسير التفاعل بين المعنى اللغوي والعوامل السياقية في التمييز بين المعاني، وتحديد المرجع، واسترجاع الإيحاءات، وتفسير المجازات، واستعادة

([1]) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون: 61.

([2]) see: Precis of relevance: communication and cognition, Dan Sperber & Deirdre Wilson:697.

([3])see: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier.:2.

([4]) see: The cognitive foundations of cultural stability and diversity, magazine Trends in cognitive science, volume 8, pages 40-46:40.

القوة الإنجازية للقول، وغيرها من الجوانب التي لا تحددها اللغة بدقة في تفسير العبارات[5]، إذًا، كل ما يحتاج إليه المُرسِل (المُشَفِّر) هو إنتاج إشارة، وكل ما على المتلقّي (المُفكِّك) فعله هو الانتباه إلى تلك الإشارة عبر عمليات استدلالية؛ لأن البشر يتمتعون بقدرة بيولوجية متأصلة على تعظيم أهمية المحفزات الواردة (بما في ذلك العبارات اللغوية وغيرها من السلوكيات التواصلية). ولا تقتصر أهمية المحفزات الخارجية (مثل العبارات) على ذلك، بل تشمل أيضًا التمثيلات والأفكار الداخلية، والتي قد تُصبح جميعها مدخلات للمعالجة المعرفية. والسعي وراء أهمية المحفزات هو سمة نموذجية[6]، وتؤكد نظرية الصلة أن الأقوال تثير توقعات ليس لأن المتحدثين يُفترض أنهم يلتزمون بمبدأ التعاون ومجموعة من القواعد (كما في نظرية غرايس)، أو بأعراف تواصلية خاصة، بل لأن البحث عن الصلة سمة أساسية من سمات الإدراك البشري، والتي يمكن للمتواصلين استغلالها. [7].

وقد أظهرت أعمال غرايس في سنوات الربع الأخير من القرن العشرين اهتمامه بنوع من التواصل يُسمى (المعنى) وهو يتطلب نوعًا خاصًا من التعبير العلني عن النية ولا يوجد في الأفعال العادية[8]، ونادى بأن التواصل من الممكن أن يحدث حتى من دون الشفرة؛ لأن الحجة في ذلك أن كل ما يحتاجه المتواصل لإيصال فكرة معينة هو أن يدفع المتلقي للتعرف

([5])See: Precis of relevance: Communication and cognition, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 697.

([6])See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier.:1.

([7])See: The cognitive foundations of cultural stability and diversity, magazine Trends in cognitive science, volume 8, pages 40–46: 41.

([8]) see: NEW DIRECTIONS FOR RESEARCH ON PRAGMATICS AND MODULARITY, Deirdre Wilson, Department of Linguistics, University College London, Published in Lingua 115: 1129–1146 (2005) and in S. Marmaridou, K. Nikiforidou & E. Antonopoulou, eds) 2005. Reviewing Linguistic Thought: Converging Trends for the 21st Century. Mouton:1138.

على نيّته في إيصال تلك الفكرة، وبشكل عام، النيّات لا تُفكّ شفراتها، بل يُستدل عليها[9]، ويُشترط في ذلك أن يُقدّم المتكلم دليلًا يثبت فيه نيته للتأثير في أفكار المتلقي، فالتواصل الاستدلالي لا يقتصر على نية المتكلم في التأثير في أفكار المتلقي فقط، بل يتعلّق بجعل المتلقي يُدرك أن المتكلم يتملك هذه النية[10]، وبذلك يتحقق الفهم عندما تتحقق نية المتكلم التواصلية، أما تحقق النية نفسها، فيعتمد على مدى العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وكيف يُشير المتحدث إلى المتلقي بأنه يحاول التواصل معه بشكل علني ومقصود، فبدلاً من أن يضع المتكلم كأسه الفارغ في مجال رؤية المتلقي بشكل خفي، قد يلمس ذراعه ويُشير إلى الكأس، أو يلوّح به، أو يضعه أمامه بطريقة ملفتة، أو يحدق فيه بشكل معبّر، أو ببساطة يقول: كأسي فارغ، وهذا ما يُطلق عليه بالمنبه الاستعراضي المصُمم خصيصًا لجذب انتباه المتلقي وتركيزه على المعنى المقصود من قبل المتكلم، وتماشيا مع نظرية الصلة فإن استخدام منبّه استعراضي قد يُولّد توقعات دقيقة ومتوقعة حول مدى صلة هذا المدخل، وهي توقعات لا تُثيرها المدخلات الأخرى[11]، فمعرفة المتكلم بالمحفزات ذات الصلة ببيئة المتلقي ومعالجتها بطريقة صحيحة قد تُمكنه من إنتاج محفز من المرجح أن يجذب انتباه المتلقي، ويؤدي إلى استرجاع افتراضات سياقية معيّنة، ويُوجّهه نحو استنتاج مقصود[12].

وبناءً على الطرح المُسبق يمكن أن نعدُّ نظرية الصلة نهجًا للتواصل البشري يرتكز على فرضية معرفية مفادها أن البشر لديهم ميل متطور لتعظيم صلة المدخلات التي

([9])See: Linguistic structure and inferential communication, Deirdre Wilson. Research paper in the proceedings of the 16th international congress of linguistics, Paris, July 20–25, 1997: 1–4.

([10]) See: Studies in the Way of Words, H. Paul Grice.1989, Harvard University Press Cambridge, Massachusetts London, England, Fourth Edition, 1995: 91.

([11]) See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 611.

([12]) See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 607.

يعالجونها، ويُنظر إلى الصـــلة على أنها ترتبط إيجابيًا بالآثار المعرفية التي يمكن تحقيقها من خلال المعالجة وترتبط سلبًا بجهد المعالجة اللازم لتحقيق هذه الآثار[13].

الفرق الجوهري بين التشفير والاستدلال

هناك عقيدةٌ مُتعارفٌ عليها على نطاقٍ واسع، مفادها أنه لا يتم التواصل إلّا باعتماد المُرسِل والمُستقبِل على شفرةٍ مشتركة، أي مجموعةٍ من الإشارات، أما نظرية التواصل الإدراكي فقد نادت بوجود نمطٍ آخر من التواصـل، يختلف تمامًا عن نمط الإشـارات، وله أهمية فريدة في التفاعلات الإنسـانية[14]، وعلى الرغم من أن نظرية الصـلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا برؤية غرايس للتواصـل من حيث تسليطها الضوء على دور النوايا من دون التمييز بينها، وعدها شكلاً من أشكال قراءة العقل فإننا نجد نظرية الصلة تفرق بين مستويين من النية:

1-النية الإعلامية: وهي نية المتكلم في إبلاغ السامع بمعلومة معينة.

2-النية التواصلية: وهي نية المتكلم في إبلاغ السامع بأنه يملك تلك النية الإعلامية.

في التواصـل الاسـتدلالي، يحصـل التعرف على النية الإعلامية عبر التعرف أولًا على النية التواصلية، ويحصل تفعيل هذه العملية عبر ما يُعرف بـالتواصل الإظهاري اللفظي، وهو التواصل الذي يكون واضـحا للطرفين، أو كما تُعبّر عنه نظرية الصـلة بـــ(ظاهر للطرفين بشكل متبادل) على عكس أشـكال نقل المعلومات الأخرى، فإن التواصـل الاسـتدلالي الإظهاري يتضـمن كلا النوعين من النوايا، ويحقق عبر تقديم المتكلم، بطريقة إظهارية دليلًا يساعد السامع على استنتاج المعنى المقصـود من الكلام[15]. ومن الاختلافات الأخرى، نرى غرايس قد التجأ إلى فكرة مركزية يدعي فيها أنّ العبارات المصـــرح بها تولّد تلقائيًّا توقعات تُفعّل لدى الســـامع عملية البحث عن معنى المتكلم المقصود مفترضا أن المتكلم يتبع مبدأ التعاون ويلتزم بـــمبادئه أو قواعده الأربع في

([13])See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 1.

([14])See: Rethinking ostensive communication in an evolutionary, comparative, and developmental perspective, Dan Sperber & Deirdre Wilson. Preprint / forthcoming (doi: 10.31234/osf.io/zp3fx) europepmc.org+2philpapers.org+2: 2.

([15]) See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 3.

كلامه، بينما نجد نظرية الصلة، تُفسِّر هذه التوقعات بمفاهيم معرفية من خلال ما يُسمّى بـ (المبدأ المعرفي للصلة)، من دون الحاجة إلى افتراض وجود مبدأ تعاون[16].

ولهذا السبب، يمكن عدّ نظرية الصلة نظرية ما بعد غرايسية، أي: إنها تنطلق من مقاربة غرايس للتواصل بوصفها بداية فقط، بخلاف النظريات النيوغرايسية التي تظل أقرب بكثير إلى مبدأ التعاون لدى غرايس وما يرتبط به من قواعد أو مبادئ ثانوية[17]، وضمن سياق الحديث عن التواصل فنحن أمام نمطين من التواصل: نمط يعتمد على التشفير وفك التشفير مع الالتزام بمبدأ التعاون وقواعده، والنمط الآخر مبني على عملية الاستدلال[18]، واستنادا إلى نوعي التواصل تُطرح عدة تساؤلات، هل هما أنموذجان مختلفان لشيء واحد؟ وإن كان كذلك فهل يتوجب علينا أن نختار واحدا منهما؟ أو هل هما أنموذجان لشيئين مختلفين تماما؟ وإذا كانا كذلك فما العلاقة بينهما؟ وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من توضيح مسألة لا تخلو من الفائدة تتلخص في أن أنموذج الشفرة يُعدُّ مترسخا في التراث العلمي، أما أنموذج الاستدلال فهو يخاطب البديهة أو الفطرة السليمة، وعند تقديم طرح جديد يتسم بالجاذبية، يميل معظم الأفراد إلى التعامل معه لا بوصفه نقضًا للمنهج السابق، بل بوصفه امتدادًا له أو تطويرًا ضمن إطاره، وقد تبنّى هذا الاتجاه غالبية الباحثين استنادا إلى تحليلات غرايس[19]، ويرى غرايس ضمن هذا المعنى إن وُجد السبيل للتعرف على مقاصد المتكلم يغدو التواصل ممكنا، وإذا كان كذلك فإن القدرات الاستدلالية التي يستعملها المتكلم زيادة على نيته تجعل التواصل ممكنا حتى في غياب الشفرة، ومن أمثلة ذلك حوار يدور بين اثنين، فيقول الأول للثاني: كيف أصبحت صحتك اليوم؟ فيجيب الثاني بإخراج زجاجة دواء من حقيبته، ففي الوقت ذاته لو افترضنا أن الثاني قد تعود على حمل زجاجة دواء في حقيبته فمن ناحية أخرى بعمله هذا يقدم دليلا قويا ومباشرا ليخبره بأنه مريض، وبذلك فقد نجح

([16]) See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 4.

([17]) See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 3.

([18]) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون: 300-301.

([19]) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون: 56.

الثاني في إيصـال قصـده من دون اسـتعمال الشـفرة[20]، أما سـيرل ففي الوقت الذي لا ينكر فيه وجود التواصل الاستدلالي إلا أنه يدعي ندرته وأن أغلبية التواصل البشري يتطلب لغة وشفرة مع التركيز على قصدية المتكلم، فهو يرى أن مفتاح المعاني يكمن في قصدية المتكلم[21]، أما نظرية الصـلة فقد جاءت بديلا شـاملا لكلٍ من نموذج الشـفرة ونموذج غرايس، وترى التواصـل الناجح يحصل عبر عملية إدراكية تتلخص بأقصى قدر من الصلة وبأقل جهد ممكن[22].

ومن الجدير بالذكر أن اسـتعمال نوع من نوعي التواصـل (الشـفرة أو الاسـتدراك)، لا يعني بالضرورة الثبات والاستمرار عليه، فليس من الضرورة إن كانت عملية التواصل تتضمن استعمال الشـفرة أن تسـتمر عملية التواصـل بتفسـير معايير الشـفرة والعكس كذلك، فالتواصـل اللغوي من الممكن أن يجتمع فيـه النوعـان بغض النظر عن الأثر المحوري الـذي يؤديـه النوع في عمليـة التواصل.

وفي صـــدد الحديث عن علاقة اللغة بالمجتمع فإن نظرية الصـــلة هي نظرية في جوهرها نظرية لظاهرة اجتماعية، تُعدّ من بين أكثر الظواهر شـيوعًا وانتشـارًا. إذ تُحلِّل التواصـل بوصـفه عملية اســـتدلالية، فهي تُقدّم نموذجًا أكثر واقعية من نموذج الشـــفرة الذي تبنّاه معظم علماء الاجتماع، سواء بشكل صريح أم ضمني، ومن الادعاءات الأساسية لنظرية الصلة أن السعي وراء الصلة يمثل عاملًا ثابتًا في الحياة الذهنية البشرية، وأن هذا السعي يُستغل بشكل منهجي في التفاعل البشري، فقد تكون ذات دلالات سوسيولوجية مهمة[23]، واستنادًا إلى هذا المفهوم فالعملية الاســـتدلالية تأخذ مجموعة من المقدمات مدخلا، وتنتج مجموعة من الاســـتنتاجات التي تنبع منطقيًا من هذه المقدمات، أو على الأقل تكون مسـوّغة بها، أما عملية فك الترميز فتأخذ إشـارة

([20]) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون: 58.

([21]) ينظر: العقل واللغة والمجتمع: 207.

([22])See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 608.

([23])See: Remarks on relevance theory and the social sciences, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 145.

بوصــفها مدخلا وتنتج رســالة مرتبطة بهذه الإشــارة عبر رمز (كود) أســاســي، وبشــكل عام فالاستنتاجات لا ترتبط بمقدماتها عبر رمز، والإشارات لا تسوغ الرسائل التي تنقلها[24].

منهج نظرية الصلة

يمكن تلخيص منهج نظرية الصلة بأربع نقاط هي:

(أ) يمكن أن يتوافق المعنى المفكك للجملة مع عدد من التفسيرات المختلفة في السياق نفسه.

(ب) تُرتب هذه التفسيرات بحسب درجة سهولة الوصول إليها.

(ج) يعتمد السامعون على معيار قوي عند اختيار التفسير الأنسب.

(د) يتيح هذا المعيار إمكانية اختيار تفسير واحد من بين مجموعة التفسيرات المحتملة إلى الحد الذي يتوقف فيه السامع عند أول تفسير يُعدُّ مطابقًا للتفسير المقصود[25].

التواصل الاستدلالي والصلة

تستند المعايير التي تحكم التواصل الاستدلالي إلى بعض الحقائق الأساسية عن الإدراك البشــري. فالبشــر يوجهون انتباههم إلى بعض الظواهر من دون غيرها، ويمثلون هذه الظواهر لأنفسهم بطريقة معينة من دون أخرى، ويعالجون هذه التمثيلات في سياق معيّن من دون سياق آخر. فما الذي يحدد هذه الاختيارات؟ وللإجابة يمكن القول: إن البشــر يميلون إلى التركيز على الظواهر الأكثر ملاءمة من بين المتاح، وإنهم يميلون إلى بناء أكثر التمثيلات ملاءمة ممكنة لهذه الظواهر، ومعالجتها في ســياق يزيد من ملاءمتها، إذًا، الملاءمة والســعي إلى تعظيمها هو

([24])See: Precis of relevance: Communication and cognition, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 697.

([25])See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 1.

المفتاح لفهم الإدراك البشـري[26]، وبناءً على ذلك تُعدّ الصـلة خاصـية للمدخلات التي تُعالجها العمليات الإدراكية، وتُحلل من حيث مفهومين هما: التأثير الإدراكي وجهد المعالجة[27].

وفي لحاظ مسألة الملاءمة فإنها ليست مسألة كلية أو عدمية، بل هي مسألة درجات، فقد تكون هناك مدخلات عديدة قد تكون ذات صـــلة تحيط بنا من كل جانب ولكن لا يمكننا الانتباه إليها جميعًا، وهذا ما يجعل أحد المدخلات جديرًا بالتمييز من بين هذا الكم الهائل من المحفزات المتنافسـة، ليس فقط كونه ذات صـلة، بل لأنه أكثر صـلة من أي مدخل آخر متاح لنا في تلك اللحظة، وبشـكل بديهي، كلما زادت الاسـتنتاجات القيّمة التي يمكن التوصـل إليها عبر معالجة مدخل معين (مع تساوي العوامل الأخرى)، زادت صلته.

ووفاقًا لنظرية الصـلة، فإن المدخل يكون أكثر ملاءمة كلما أدى إلى تأثيرات معرفية إيجابية أكبر، فعلى سـبيل المثال، رؤية القطار الذي أنتظره يصـل متأخرًا دقيقة واحدة قد لا تُحدث فرقًا يُذكر في تمثيلي العقلي للعالم، في حين إن رؤيته يصل متأخرًا نصف ساعة قد يؤدي إلى إعادة تنظيم جذري ليومي، وتختلف درجة الملاءمة بين هذين المدخلين تبعًا لذلك[28]، ووفاقا لهذا المفهوم، لا توجد قيمة واحدة للملاءمة لافتراض واضـح. يكون الفرد حرًّا في اسـتكشـاف مجموع الافتراضات الواضحة له والتي هي بالمناسبة مجموعة لا نهائية لأنها قد تشمل سلسلات لا نهائية مثل "أنا سعيد" و"أنا أعرف أني سعيد" و"أنا أعرف أني أعرف أني سعيد"، وهكذا[29].

ولتوضـــيح كيفية مقارنة مدى صـــلة المُدخلات البديلة من حيث الأثر المعرفي وجهد المعالجة نورد المثال الآتي الذي يتمثل في حوار يدور بين صـــاحب مطعم ورجل جاء لتناول

([26]) See: Outline of relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber: 91.

([27]) see: NEW DIRECTIONS FOR RESEARCH ON PRAGMATICS AND MODULARITY, Deirdre Wilson, Department of Linguistics, University College London, Published in Lingua 115: 1129–1146 (2005) and in S. Marmaridou, K. Nikiforidou & E. Antonopoulou, eds) 2005. Reviewing Linguistic Thought: Converging Trends for the 21st Century. Mouton:1139.

([28]) See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 609.

([29]) see:. "Review of *Relevance: Communication and Cognition*, by Dan Sperber and Deirdre Wilson." Hirst, Daniel1989. *Mind & Language* 4, no. 1–2: 138–146: 143.

الغداء علما أن الرجل لا يحب معظم أنواع اللحوم ويعاني من حساسية تجاه الدجاج، فيقول الرجل ماذا لديكم في وجبة الغداء فيخبره صاحب المطعم بالعبارات الثلاث التالية:

1- نحن نقدّم لحومًا.

2- نحن نقدم دجاجا.

3- إما أننا نقدّم دجاجًا، أو أن (72 – 3) لا يساوي 46.

من حيث الأثر المعرفي

في الجملة الأولى (نحن نقدّم لحومًا).

أ- يفهم الرجل منها أن هناك لحومًا، لكنه لا يعرف هل بينها الدجاج (الذي لديه حساسية تجاهه) أم لا؟

ب- يمكنه أن يستنتج بعض الأشياء، لكنه قد يضطر للسؤال مرة أخرى: هل من بينها دجاج؟.

في الجملة الثانية (نحن نقدم دجاجًا)

أ- معلومة أكثر تحديدًا.

ب- الدجاج هو نوع من اللحوم، فهي تتضمّن العبارة (2)، لكنها تضيف معلومات إضافية مهمة جدًّا بالنسبة للرجل، خاصة بسبب حساسيته. لذا، فالأثر المعرفي في (2) أكبر من (1).

من حيث جهد المعالجة

الجملة الثانية (نحن نقدم دجاجا)

أ- جملة مباشرة وسهلة الفهم.

ب- لا تتطلب أي حساب أو استنتاج منطقي معقد.

الجملة الثالثة (إما أننا نقدّم دجاجًا، أو أن (72 – 3) لا يساوي 46).

أ- عملية حسابية بسيطة.

ب- يدرك أن الناتج ≠ 46.

وبناءً على ذلك يستنتج الرجل أن الجملة الثانية (نحن نقدّم دجاجًا) صحيحة من جهة المنطق، بينما جملة (إما... أو) تتطلب جهدًا إضافيًا في التحليل والاستنتاج. لذا، فالجملة (3) تتطلب جهدًا إضافيًّا في التحليل والاستنتاج.

الاستنتاج العام:

(2) تُوفّر أثرًا معرفيًا أكبر من (1).

(2) تتطلّب جهدًا أقل من (3).

ووفاقًا لنظرية الصلة فالعبارة (2) هي الأكثر صلة بالرجل من بين العبارات الثلاث؛ لأنها تحقق أكبر فائدة معرفية بأقل جهد ممكن، كلما زادت التأثيرات المعرفية الإيجابية وقلّ الجهد المطلوب لتحقيقها، زادت الصلة[30].

الملاءمة المثلى

يكون المحفز الإشاري للمتكلم ذا ملاءمة مثلى للمتلقي إذا تحقق كل مما يأتي:

1- أن يكون المحفز ذا ملاءمة كافية تجعله يستحق جهد المعالجة من المتلقي.

2- أن يكون الأكثر ملاءمة ضمن حدود قدرات وتفضيلات المتكلم.

ووفاقًا للشــرط (1) يحق للمتلقي التوقع أن يكون المحفز الإشــاري -على الأقل- ذا ملاءمة كافية ليســتحق المعالجة، فمن أجل تلبية افتراض الملاءمة الذي يحمله المحفز الإشــاري، قد يضــطر الجمهور إلى اســتخلاص اســتنتاجات أقوى مما كان مبررًا في حالات أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا لاحظت كأسي الفارغ صدفةً، فقد يكون من حقك أن تستنتج أنني ربما أرغب

(30)See: UCL Working Papers in Linguistics 8 (1996) — Questions on Relevance, Isao Higashimori: 3.

في شرب الماء. لكن إذا قمت بتحريكه عمدًا أمامك، فسيكون من المسوغ عادةً أن تستخلص الاستنتاج الأقوى بأنني أرغب في شرب الماء[31].

ووفاقًا للشـــرط (2)، يحق لمتلقي المحفز الإشـــاري أن تكون لديه توقعات أعلى من ذلك، فالمتكلم من مصلحته – ضمن حدود قدراته وتفضيلاته الخاصة – أن يجعل المحفز الإشاري ســـهل الفهم قدر الإمكان للمتلقي، وأن يقدّم أدلة ليس فقط على الآثار المعرفية التي يســـعى لتحقيقها في المتلقي، بل أيضًـــا على آثار معرفية إضـــافية تســـاعد في شـــد انتباه المتلقي بما يُســـاعده على تحقيق هدفه. فعلى ســـبيل المثال، قد يكون هدف المتكلم هو إعلام المتلقي بأنه قد بدأ كتابة روايته، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، فإنّه يُقدم معلومات أكثر تحديدًا ويقول: لقد كتبت بالفعل ثلث الرواية، ففي هذه الحالة، يحق للمتلقي أن يفهم من كلام المتكلم أنه كتب فقط ثلث الرواية، لأنه لو كان قد كتب ثلثين (مثلاً)، لكان من المتوقع أن يذكر ذلك، فكل هذا يُؤخذ في الاعتبار في الشـــرط (2) من تعريف الملاءمة المثلى، الذي ينص على أن المحفز الإشـــاري الأكثر ملاءمة هو الذي يُحقق أكبر تأثيرات مقابل أقل جهد في المعالجة، ويكون المتواصل راغبًا وقادرًا على إنتاجه ضمن قدراته وتفضيلاته[32].

وبناءً على المعطيات الســـابقة ندرك أن البشـــر لا يوجهون انتباههم إلا إلى المعلومات الملائمة، فالمتحدث بمجرد ســـعيه لجذب انتباه الجمهور، يخلق توقّعًا بالملاءمة. فهو يخلق توقّعًا على وجه الخصوص بأن المعلومات التي يحاول إيصالها عند معالجتها في سياق يعتقد أن الجمهور قادر على الوصـول إليها وتكون ملائمة بما يكفي لتستحق انتباه الجمهور، ويبقى

([31]) See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 611.

([32]) See: Relevance theory, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. Blackwell's handbook of pragmatics: 607–632: 611.

السـؤال المحوري ما مدى هذه الملاءمة؟ أو ما هو بالضـبط توقّع الملاءمة التي يُنشـئها كل فعل من أفعال التواصـل الاسـتدلالي؟ وللإجابة يمكن القول: إن التوقّع هو توقّع (الاكتفاء أو الكفاية)، ففي أكثر حالات التواصـل اللفظي وضـوحًا، يُلمّح المتحدث إلى أن القضـية التي ينوي التعبير عنها، عند معالجتها في سياق يتوقّع أن يكون المستمع قادرًا على الوصول إليها، وحينئذٍ تُسـتنتج كمية كافية من الآثار السـياقية تجعلها جديرة بانتباه المسـتمع، ومع ذلك فإن مقدار الآثار السياقية المطلوبة يختلف من شـخص لآخر، ومن مناسـبة لأخرى، ويبقى تحديد مستوى الكفاية وكيفية تغيّره سؤالًا مثيرًا للاهتمام، لكن الحدس البشري تجاه أمثلة معينة يكون عادة واضـحًا بما فيه الكفاية[33]، فالبشـر يمتلكون قدرة تنبؤية عالية ويسـتطيعون التأثير في الحياة الذهنية لبعضـهم البعض وهم يفعلون ذلك من خلال التلاعب بتوقعات بعضـهم البعض حول الملاءمة[34].

السياق ونظرية الصلة

ترى نظرية الصلة أن السياق كيان ذهني ديناميكي يتكون من مجموعة افتراضات الفرد عن العالم، وهذه الافتراضـات يتوصـل إليها أثناء البحث عن الملاءمة. وغالبًا ما تكون هناك حاجة إلى عدة امتدادات للسـياق للوصـول إلى تفسـير ذي ملاءمة مثلى. وما إن يُعثر على تفسـير مُرضٍ، تتوقف عملية الاسـتدلال، ولا تُؤخذ فرضـيات اسـتدلالية أخرى بعين الاعتبار، فعندما يجد السـامع، تفسـيرا يُرضـي توقعاته من حيث الملاءمة بأقل جهد ممكن، وفي غياب أدلة معاكسـة، فهذا يعني أنه قد توصـل إلى أفضـل فرضـية تفسـيرية ممكنة، ومن ثَمَّ، تعتمد

([33]) See: *Outline of relevance theory, Deirdre Wilson* Dan Sperber*,Department of Linguistics University College London, **CNRS and CREA Ecole Polytechnique, Paris, Links & Letters 1, 1994 85-106.*: : 95.

([34]) See: Remarks on relevance theory and the social sciences, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 149.

الملائمة على توازن بين الفائدة المعرفية التي قد يوفرها الكلام (ما يُعرف بـــ"الآثار المعرفية الإيجابية) وبين الجهد الذهني اللازم لاستخلاص تلك الفائدة[35].

سبب تراجع نظرية الشفرة

يعود السـبب في تراجع نظرية نموذج الشـفرة إلى أمرين، الأول: الادعاء الذي جاء به غرايس من إمكانية إيصال الرسائل دون تشفيرها اعتمادًا على الاستدلال الإدراكي مع مراعاة نيته ، والآخر يتمثل في اهتمام اللغويين بشـكل متزايد على تحليل تبعية السـياق في التداولية على تبعية سياق تفسير العبارات بشكل عام، وفي علم الدلالة على تحليل تعبيرات معينة تعتمد على السياق[36].

تُعدّ نظرية الإيحاء التي قدّمها غرايس محاولة أولى ضـمن نظرية اللغة لتعريف كيفية فهم المتحاورين لعبارات تبدو غير مترابطة منطقيًّا ضـمن الخطاب، أما نظرية الصـلة فهي طرح أحدث في مجال التواصل البشري، وتقوم على رؤية عامة للإدراك العقلي.

مشكلات وانتقادات نظرية الصلة

من أصـعب المشكلات التي تواجه نظرية الصـلة هي مسألة تعريف الملاءمة، فالمفهوم يُعرّف جوهريًا بأنه يتحقق عندما تؤدي معالجة المعلومات إلى أقصـى تأثير سـياقي ممكن بأقل جهد ذهني ممكن، ويجب أن ينطبق هذا التعريف على عقل المستمع. وبناءً على ذلك، يُنظر إلى هذا النموذج عادةً على أنه منحاز للمستمع، ومع ذلك، فإن عملية الاستدلال التي يقترحها سـبيربر وويلسـون، التي تقوم على ما هو ملائم للمسـتمع، قد تنتج عددًا من

([35]) See: Relevance theory, Francisco Yus. Encyclopedia of language and linguistics (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier: 3.

([36])See: Linguistic structure and inferential communication, Deirdre Wilson. Research paper in the proceedings of the 16th international congress of linguistics, Paris, July 20–25, 1997: 1–4.

الاستدلالات أكبر مما هو مقصود أن يستخلصه المستمع، ومن هنا، قد يُقال: إن مبدأ الملاءمة يولّد استدلالات زائدة، الأمر الذي يتطلّب فرض قيود إضافية[37].

ويؤكد ويلسون وسبيربر أن مدخلات المتحدث تتصل بالمعلومات الخلفية المتوفرة لدى المستمع، بحيث يتمكن المستمع من استنتاج نتائج تهمه، ويُقيّم مدى ملاءمة المدخلات لشخص معين بناءً على الأثر المعرفي الإيجابي فكلما زادت الآثار المعرفية الإيجابية المحققة وقَلَّ جهد المعالجة المبذول، زادت ملاءمة مدخلات المتحدث للمستمع، أما المبدآن الأساسيان في النظرية فهما: الأول: المبدأ المعرفي الذي يقول: إن الإدراك البشري يهدف إلى تعظيم الملاءمة، والآخر هو المبدأ التواصلي الذي يقول: إن العبارات تخلق توقعات بالملاءمة المثلى [38]، ففي المبدأ الأول يكون السعي إلى تحقيق الملاءمة هو عامل دائم في الحياة الذهنية للإنسان، وهذا الادعاء النفسي له نتائج سوسيولوجية مباشرة؛ فمن الطبيعي أن ينتبه الناس إلى المعلومات الجديدة التي تبدو أكثر ملاءمة لهم، وأن ينتجوا أفكارًا من خلال عمليات استدلال تجمع بين هذه المعلومات الجديدة والسياق الأكثر ملاءمة المتاح لديهم، فوجود هذا العامل الثابت هو ما يُتيح للفرد أن يستنتج – ولو بقدر محدود من النجاح – ما الذي يلفت انتباه الآخرين، بل وأحيانًا ما الذي يفكرون فيه؟[39]، أما في المبدأ الثاني فالتواصل الظاهري يخلق توقعات دقيقة وفريدة من نوعها حول الملاءمة لدى الآخرين.

ويُعد التواصل الظاهري الوسيلة الأهم التي يُستغل عبرها الميل النفسي لتحقيق أقصى قدر من الملاءمة على الصعيد الاجتماعي، وهناك أيضًا طرق غير ظاهرة، وعلى الرغم أن تأثيراتها في المحتوى الدقيق لأفكار الآخرين قد تكون أقل دقة، فإنها قد تظل ذات أهمية اجتماعية كبرى، فعلى سبيل المثال، الأدلة غير الظاهرة على الاحترام أو الخضوع، أو

([37])See: Relevance theory and context selection: A discussion of Sperber & Wilson's comprehension model, June Luchjenbroers: 1.

([38])See: Fuzziness and relevance theory, Grace Zhang. Foreign language and literature studies 22 (2): 73–84, 2005 espace.curtin.edu.au: 73.

([39]) See: Remarks on relevance theory and the social sciences, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 149.

توقعات الاحترام أو الخضـــوع من الآخرين، تعدّ ذات صـــلة عالية وفعالة في الحفاظ على العلاقات التواصلية أو تحديها[40].

ولا بد لنا من ذكر أهم الانتقادات التي وجهت لنظرية الصـــلة متمثلة بتركيزها المفرط على الفردية وتجنبها الجوانب الاجتماعية في التواصل، وقد اعترف سبيربر وويلسون بأنهما ركزا على النشاط الاستنتاجي للفرد لكنهما في الوقت نفسه لم ينكرا استخدامات التواصل لنقل معلومات عن العلاقة الاجتماعية بين المتحدثين، بل يشـــعران فقط أنهما في هذه المرحلة يمكنهما أن يقدما أفضـل مسـاهمة لدراسـة التواصـل البشـري من خلال تناوله في مسـتواه الأســـاســـي، متجاوزين هذه الجوانب الأكثر تعقيدًا (المرتبطة اجتماعيًا)، فهما يريان أن التواصل الاستدلالي اجتماعي بطبيعته، ليس فقط لأنه شكل من أشكال التفاعل، ولكن أيضًا لأنه يستغل ويوسع نطاق الأشكال الأساسية للإدراك الاجتماعي[41]، ومن ثَمَّ، فإنّ مساهمة نظرية الصلة في دراسة التواصل البشري كانت على مستوى مجرد إلى حد ما، ولهذا السبب يبدو لنا أنها تحمل إمكانات لتطبيقات أكثر واقعية على مستوى علم اللغة الاجتماعي.

الخاتمة

1-تقدم نظرية الصـلة تحليلًا دلاليًا كافيًا إلى حد ما لمجموعة واسـعة من الأشـكال اللغوية. فالصلة تُوجِّه التفسير، وبناء سياق أو استنتاج ذي صلة بحد ذاته يُساعد في تحديد ما إذا كان التفســير صــحيحًا، والمعلومات ذات الصــلة والتي يُمكن معالجتها بشكل منتج.

2-تعتمد الصـــلة على التأثيرات الســـياقية (المعرفية) وجهد المعالجة، فكلما زادت التأثيرات السياقية وقل جهد المعالجة اللازم لتحقيقها زادت الصلة.

([40]) See: Remarks on relevance theory and the social sciences, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 149.

([41]) See: Remarks on relevance theory and the social sciences, Dan Sperber & Deirdre Wilson: 147.

3-ســـعى منظرو نظرية الصـــلة إلى الجمع بين التعميم النظري وجميع الإمكانيات التي تتيحها طرق الاختبار، عبر الاســـتخدام الدقيق للحدس اللغوي، والبيانات الرصدية، والأساليب التجريبية في علم النفس المعرفي. ونرى أن هذا يمثل اتجاهًا مهمًا للبحوث المستقبلية.

4- نظرية الصـــلة قد وجهت انتقادا لنظرية غرايس في أهميتها وبنتْ نظرية قائمة بذاتها تنادي بوجوب صـــلة في المحادثة تمكن المتلقي من الوصـــول إلى ما هو ظاهري أو استنتاجي.

5- نظرية الصلة لا تتطلب ردًّا من المتلقي، ولكن تشترط في حالة الرد أن يكون ذا صلة مما يضمن نجاح التواصل، وقد بينت نظرية الصلة عدم اتفاقها مع اقتراح نظرية غرايس في التعامل مع النموذج المعقد للاستدلال البشري لاستنتاج المعاني الضمنية.

التوصيات

1- تعزيز الربط بين نظرية الصلة والعلوم الأخرى؛ لفهم آليات الاستدلال.

2- الاســـتفادة من نظرية الصـــلة في عملية الترجمة؛ لبيان أثر الصـــلة في نقل المعلومات الضمنية بين اللغات.

3- الاعتماد على أمثلة واقعية في المحال التطبيقي وتكون نابعة من الاســـتعمال اليومي بدلا من الاعتماد على الأمثلة المصطنعة.

المصادر العربية

- العقل واللغة والمجتمع الفلســفة في العالم الواقعي، جون ســيرل، ترجمة: ســعيد الغانمي، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006.

- نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، مراجعة: فراس عواد معروف، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016.

المصادر الأجنبية

- **Fuzziness and relevance theory**, Grace Zhang. *Foreign Language and Literature Studies* 22 (2): 73-84 ،2005 espace.curtin.edu.au
- **Linguistic structure and inferential communication**, Deirdre Wilson. Research paper in the proceedings of the 16th International Congress of Linguistics, Paris, July 25-20, 1997.
- *Outline of relevance theory, Deirdre Wilson* Dan Sperber*,Department of Linguistics University College London, **CNRS and CREA Ecole Polytechnique, Paris, Links & Letters 1, 1994 85-106.*
- **Precis of relevance: Communication and cognition**, Dan Sperber & Deirdre Wilson.
- **Relevance theory**, Deirdre Wilson & Dan Sperber. Published in L. Horn & G. Ward (eds) 2004. *Blackwell's Handbook of Pragmatics*: 607-632.
- **Relevance theory**, Francisco Yus. *Encyclopedia of Language and Linguistics* (2nd ed.), Keith Brown (ed.), 2006. Amsterdam: Elsevier.
- **Relevance theory and context selection: A discussion of Sperber & Wilson's comprehension model**, June Luchjenbroers.
- **Remarks on relevance theory and the social sciences**, Dan Sperber & Deirdre Wilson.
- **Rethinking ostensive communication in an evolutionary, comparative, and developmental perspective**, Dan Sperber & Deirdre Wilson. Preprint / forthcoming (DOI: 10.31234/osf.io/zp3fx) europepmc.org+2philpapers.org+2
- **The cognitive foundations of cultural stability and diversity**, magazine *Trends in Cognitive Science*, Volume 8, pages 46-40.

- Ucl Working Papers In Linguistics 8 (1996) — Questions On Relevance, Isao Higashimori.
- Studies In The Way Of Words, H. Paul Grice. 1989, Harvard University Press Cambridge, Massachusetts London, England, Fourth Edition, 1995.
- Review Of Relevance: Communication And Cognition, By Dan Sperber And Deirdre Wilson. Hirst, Daniel 1989. Mind & Language 4, No. 1–2: 138–146.
- New Directions For Research On Pragmatics And Modularity, Deirdre Wilson, Department Of Linguistics, University College London, Published In Lingua 115: 1129–1146 (2005) And In S. Marmaridou, K. Nikiforidou & E. Antonopoulou, Eds) 2005. Reviewing Linguistic Thought: Converging Trends For The 21st Century. Mouton.